
همس القلوب
إبداع الحرية
(٤)
الفنان عزالدين نجيب
قصص
عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

همس القلوب

قصص

عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

سلسلة غير دورية تعني بنشر الإبداعات العربية فـــــــي
(القصـــة ، الشعـــر ،الروايـــة ،المسرح، النقـد)

سـلسلة

إبداع الحرية

(4)

سلسلة تعني

بنشر الإبداعات

العربية

المراسلات:

باسم المشرف العــام

المنصـــورة كفـــر البدمـــاص 24ش طارق بن زيـــاد

(أحمد فـؤاد سابقـــا)

ت: 2326147 – 2326133 /050

محمول رقم / 0101085737

إهداء

إلى أمي.. التي نضب من بعدها معين الحب

المؤلف

الجمل .. لا يعرف اليأس !!
الشاعر.. حزين عمر

عرفته متظلما من اعتداء على إبداع وسطو على إحدى قصصه المبهرة.. وحمل عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل شكواه إلى أصحاب النوافذ و "البوتيكات" الصحفية، وحفيت قدماه مشيرا إلى العدوان على إبداعه.. لكن أحدا لم يلتفت إليه.. فمن الذي ينصر مبدعا لا يملك من أسلحة في الحياة غير الإبداع على أديب "نظامي" وراءه "شلة" أو طابور من "المنظمين" و "المنظرين" و المنتفعين" و "المطبلين"؟!.

وفي اللحظة التي ازدادت قتامة الدنيا في وجه الجمل تقدم إليّ بأحزانه، مؤكدا حقه في هذه القصة التي نشرها السارق في "الجمهورية"... وحملت شكاية الأديب المظلوم المعتدي على حقه، على كتفي وشهرت حجج الحق أمام اللص المتبجح.. وكانت فضيحة في مقاهي الأدب ومنتدياته!!

أسوق هذه الحكاية لإضاءة بعض الشعاع حول المبدع الصامد المكافح، الي آمن ـ وله الحق ـ بقدراته الإبداعية فلم ينخذل عنها بل دافع باستماتة عن قدراته هذه أمام سطو البشر، وقهر الحياة، وسواد الأيام.

لم توقفه حادثة سرقة عن التدفق، ولم يخترق اليأس حصون مقاومته.. وقدم الجمل قصة أخرى وقصصا، ومجموعة ومجموعات، أكدت كلها هذا النفس الإبداعي الخالص الذي لا يشاركه فيه غيره من أبناء جيله ولا التالين أو السابقين.. كل عمل يخترقه خيط من السحر الذي لا يدع القارئ ينفك منه حتى آخر كلمة، ليجلس مرة ومرات بين دهشة وذهول عن مفارقات الوجود، ونقائص النفوس، وزيغ الطبائع..

أعماله غوص في الأمواج، وسباحة تبدو كما لو كانت غوصا إلى أعماق نقطة في المحيط.. ولتنظر هذه المجموعة القصصية (همس القلوب) لتحقق من هذه الرؤية.

واستمر الجمل في محاربة خسة الأيام وقهرها للضعاف، فأعرب مرة أخرى عن وجه التحدي لديه فبمجرد أن تحرر من قبضة الوظيفة الميري، قبض قروش مكافأتها القليلة، وغامر بدون وجل ليضع بذرة سلسلة أدبية يخرج من جعبتها عدة أجيال من أبناء الستينيات إلى أبناء التسعينيات.

لم يجد الجمل البريق النقدي والإعلامي والدعائي الذي أنتظره لهذه السلسلة، والتي هي جديرة بها وبأكثر منه.. وعلى الرغم من ذلك لم ييأس.. فالجمل لا يعرف اليأس.. والزمن القادم سوف يقول عنه ويشهد له بما لا يشهد الماضي والحاضر!!.

فتحية إليه وإلى سلسلة "إبداع الحرية"

حزين عمر

1

الدخول في نقطة البحث

- عروس بلاد الشمس.
- محاولة الجلوس في ثقب إبرة.
- خطوط فاصلة على تقاطع ما حدث.
- اللعب برأس المغني الذي سكت.
- شعاع في خيمة البوح.
- أولاد الرجل الذي يغرق.

عروس بلاد الشمس

وقف أمام الباب تنهب وجهه الحيرة.. أنّ صدره بالسؤال وهو يخبط الرأس بالباب الموصد: ما معنى كل يوم أن يرتدي أباه ملابس عمال السكك الحديدية؟... ما معنى أن يراه ماشيا في الشارع بشكل يثير الدهشة والإعجاب حيث غدت البيوت التي تقع على جانبي الطريق... بالنسبة لقامته... قزميه؟.

ما معنى أن ...؟

عندما سحب الغطاء على جسده أكتشف سراً جديداً دفعه للنظر بمزيد من الاحترام إلى أبيه، فقد كان بحوزتهم دكاكين البقالة وأصحاب الورش الصغيرة، ينفسون عليه بسبب حذقه معظم الأعمال اليدوية.

وكان أترابه يغبطونه ويتمنى كل منهم أن يكون له أبا مثل أبيه، يجيد رتق الثياب وأحذية إخوته ومعالجتها وضبط وإصلاح الساعات التي تقدم وتؤخر ـ للناس ـ مجانا، فقد ثبت انه حداد ماهر، إذ قام بصنع إطارات عربات الكارو، وصهوات الجياد.

لم يكن ثمة عيب يعكر صفو حياته، وتريد سحنته بسببه إلا حين يختنق صوته بالسخط وهو يعلن عن ضيق ذات اليد بسبب الشح الذي أصاب الناس بجفاف العواطف، وحده في السلوك.

في ذلك اليوم خرج عليه من غرفته مرتديا معطفا أبيه, تناول كفه بين قبضته ضغط على شدقية,, لم يكن يعرف أن أباه أصبح على دراية لا بأس بها بطب الأسنان.

صاح بعصبية لم يعهدها فيه من قبل:

- افتح فمك يا ولد.

سحب من فمه السن الكبيرة، وضعها بالقرب من يده في طبق نظر هو اليها بحسرة، أعتقد أنها السليمة، لكن الدكتور كان بلا شك يعرف أكثر من محافظ المدينة فعندما علم من أمه أنه لبث يعاني من ارتفاع درجة الحرارة طوال الليل،

قام على الفور بخلع بالطو المصلحة عن جسده، وقبل أن يشمر أكمامه، نادى بصوت جهير على الجيران، ثم أمره بأن يفتح فمه لعل من حضر لمشاهدة إجراء عملياته ينبهرون من نظافة لسان الولد، ويتأكدون من أنه نشأ على الحلال، وأن طعاما من حرام لم يدخل إلى جوفه أبدا ... أبدت ... أبدا.

- افتح يا ابن الكلب.. فمك... افتح حتى يرى الجميع.

فتح فمه أكثر من عشرة مرات.... امتلاء الصحن الأبيض بقطع من العظام، وكانت كماشة المسامير لا تزال تخبط في سقف الحلق، فأدمت لثته، وتطايرت أعمدة السرير حتى غاب عقله وتاه في شظايا الألم والصراخ:

- هذه سن لبن الطفولة.

صاح الدكتور فرحا وهو يدعك قفا الولد بكفيه حتى يخفف عنه الألم ثم أضاف:

- ولا يهمك يا ولد.. ستطلع بدلا عنها سنة اللؤلؤ.

كان في نية الولد أن ينام مبكرا حتى يقوم بعد الفجر ليشاهد الشمس، ويطوح بسنه في وجهها، والأطفال يرددون خلفه:

- يا شمسي يا شموسه... خدي سنة الحمار وهاتي سنة العروسة.

لابد أن الشمس ستضحك في وجهه.. لن تعبس أبدا، أبدا.. لن تكون مثل أمه وهى تضعه فوق السرير... مهما حاولت مواراة ملامحها، فقد رأى ما تسره في نفسها... أيمكن أن يكون للبنج أثره على نصرف الولد؟... إذ ما معنى أن يلح عليها - بعد أن يخلع السن المسوسة- حتى يسافروا إلى المكان الذي تخرج الشمس منه؟.

طبعا- يا حبيبي- سنسافر كلنا في العيد.

لم تف بأي وعد أخذته على نفسها، فقبل أي عيد كانت تقول في العيد، وبعد كل عيد، تقول في العيد... إنها تضحك عليه.. ربما لأنها غير مهتمة –مثله- بنداء، صفارات القطارات التي تمرق بالقرب من شبابيك بيتهم إن شيئا ما لا يعرفه كانت تعاني بسببه سنسافر ... يا حبيبي.

أدار رأسه فوق المخدة... رأى تحت الغطاء أنفاق السكة الحديدية.. اعترته هزه من السرور... خرجت جميع قطارات السكة الحديدية من جانب فيها، ودخل بعضها في فوهات أنفاق مظلمة ومشحونة بالهدير والجلبة، ثم اتسعت حدقتاه حيث رأي بوضوح كيف دارت العجلات، وكيف هرست قعقعاتها عظامه؟.

كان ثمة قطارات كثيرة تقف بجوار أرصفة المحطة، تحثه صفارتها على الاستعداد للرحلة، بينما لبثت القضبان تعدو فوق الفلنكات، حتى تناءت المسافات بينه وبين أشجار العصافير، فما كان منه إلا أن راح يرفس الغطاء عن جسده في غضب.

مجلة أدب ونقد
أغسطس 1995

محاولة للجلوس في ثقب إبرة

فتش عليها... قبل أن يغرق الضيق صدره... وجدها... حمدا لله تنفس بارتياح كطفل عثر على يد أبيه في السوق بعد أن افتقدها مدة.

كانت لحظة سال فيها لعابه بطعم مثل الشهد الممزوج بعسل لا شائبة فيه، ولا كدر.

تمنى ألا يبتلى بالشعور الذي اعتوره حين أكتشف أنه افتقدها... لا يريد ان يجتاح عقله الضباب والكآبة... تلك اللحظة لم تدم... كل شئ ينتهي بقدرة الله، ويبتدئ.

حسبه الاستغراق في حالة العجز والضياع.... خاصة وأن تلك اللحظة لم تكن مثل اللحظات المنصرمة.. بل كانت مثل الزنزانة... قاهرة.. باطشة... بل ومميتة..

لقد جعلت المكان يغادر المكان... حتى غاصت قدماه المكان... غاصت قدماه في رخاوة معجونة بالعرق الخارج من مسام جسده.

أعوذ بالله...

قال وهو يتكئ عليها... ستكون الأشياء في أوضاعها الطبيعية، لا بلبلة تصيب العقل، لا كآبة تقهر الروح.. إذن... من الأفضل أن يقع قوله القديم:

- لحظة تركتني.. كادت تزل قدمي.

نأى عن الوهاد... دخل في الأرض الطينية.... مشى في مساحات ينشع وجهها بالملح... أريقت فوق رأسه ألوان الغروب التي خطها المشيب... ابيضاض تدوسه الأقدام مثل الهشاشة.... تطقطق الأرض بأوجاع الضغط عليها، والرأس تدور.

أخذه حلم ذلك النهار... مشى به تحت أفق ملون بعصارة ثمار الليمون، بينما لاحت الأطراف البعيدة مخضبة بألسنة من الحريق... سرعان ما تحولت إلى لون متفحم، أرغم النهار على الانسحاب.

على الطريق التقى برجل يناهز العقد الخامس من عمره هضيم الوجه... حافي القدمين... همس في رجاء:

- ليس بيدي عصا.. هلا أعطيتني عصاك لأهش بها على غنمي؟!

لماذا لم يحرر حياته من الاعتماد عليها؟!

لماذا ركن إليها طوال تلك السنين؟

قرع نفسه باللوم.. كاد الاتكاء عليها بنسبة الاعتماد على الله وعلى نفسه.. قال:

- راعي غنم بدون عصا.. لا يصلح!

وتابع السير بكاهل منحن... إلتقى بغلام استوقفه بصوته الرفيع:

- لديك يا جدي ثوبين.. أعط للعاري واحدا منهما.

أخرج من جيب جلبابه مصحفا... قبل أن يخلعها عن جسده تمتم:

- لك الحق في طلبك يا ولدي.

تمنى على الله أن يقابل إنسانا يطلب إليه أن يخلع نعليه.... لا حاجة له بهما بعد أن لاحت قدماه الكنيسة والقلاية([1]) القديمة... ما عاد بحاجة للثياب والنعال.. لا يريد ما يبلى ويفنى، إذ أن المكانين القديمين... القلاية والكنيسة، كلما إقتربت خطواته منهما... تسارعت دقات قلبه، كأنه جناحين من النور ينبتان بين ضلوعه، ويرفرفان.

لم يكن بالمكان أحد سواه... دكة خشبية على يسار الداخل.... دكة أخرى على اليمين، في أقصى المكان خزينة مرتفعة على سطح الأرض، تحتوي على أعداد قديمة من نشرة الكرازة وعدة أناجيل.

اقترب.. إنحنى... رأى تحت المكتبة قفة بها حفنات من الشعر وبضعة أرغفة جافة، أما المقعد الكبير، فقد كان لا يزال هناك رابضا باعتداد في صدر الاستراحة.

وقف أمامه باحترام لهج لسانه... هو ذا مقعد راعي الكنيسة ثلاثة عقود مضت وهو لا يزال في نفس المكان.. قرأ في سره آيات من سفر الأيام وأحكام الزمن.

إذا كانت كل الأوقات التي مرت والتي تمر، مشى خلالها الإنسان في الصباح على أربع، وفي الظهيرة على اثنين، وفي المساء على ثلاث، ليس من الغرابة أن تعمل الأيام عملها وتقوم بنكت قطن مقعد الراعي، وتمتص الشمس ألوان الكسوة القماش المخلوعة عليه، وما لم تبقه الأيام على حاله احتفظت به الذاكرة، فألوان قطعة القماش الكستور، لا تزال عميقة وزاهية في جانب من رأسه.

قلم من غزل خيوط بيضاء.. قلم من غزل خيوط خضراء... ما تبقى من المكان... ليس في المكان، لقد دخل في الزمن الآخر المتحول إلى ذرة في الأعماق، تلك التي لن تبقى على حالها، فما في خارجه وداخله... الذاكرة نفسها... ما التهمته الأيام، وما تحتفظ به، سيضعه فوق مائدة الراعي.

---

[1] - مكان للعبادة.

دار المكان..

الاستراحة عبارة عن ساحة صغيرة مستديرة.. الأرض مغطاة بقطع صغيرة حجرية... سوداء، لولا أنها كانت منبسطة في إتساق لأصيب بالانقباض والوحشة.

دمعت عيناه بسبب طول الحملقة في المقعد... لم يرق إيمانه إلى مستوى الجلوس فيه... ثمة أمل، لقد استيقظ بعد أن أدبر الشباب وولى، جاء ليقول للراعي أنه أعد نفسه للتجربة.

جلس على الدكة منتظرا مقدم قداسه من إذا نهض للصلاة، بدأ كأنه في حجم طفل يقف خاشعا بين يده العصا، يكفل الكلأ والماء ويرعى شئون الغنم حتى لا يفترى على الذئاب بسببها (!!) وياليت ثوبه يكون قد ستر عريانا.. ولعل الشاطئ الذي حدفه إلى هذه الناحية تكون أمواجه هدأت.

في ذلك العام، خرجت الصبايا تزف للنيل عروسه، سبق الجميع، غاص بلا ثياب، مشى في قيعان النيل.. رأى ملك البحر يعابث الجنيات دون أن يشعر بالفيوضات، ولا بالشبع وامتلاء، والحقيقة، أن الشعب كان على امتداد الشاطئ يضرب بالكفوف على الدفوف.. ما تحت السطح ظهر جليا.... اما النوازع المكبوتة تحت إهاب المترجلين على الشاطئ... من يقدر على معرفتها سواك أنت يارب؟!

حين طال به الوقت، تململ جسده فوق الدكة.. كان المكان يغص بالمرتلين... أيام يفاعته... هبط نفر من الشعب من فوق الصليب صدور مخضبة بالدماء... رؤوس سابحة في هالات من نور.

رأى صورهم بجوار الأيقونات.. صدور مخضبة بالدماء.. رؤوس سابحة في هالات من نور.

رآهم في ذلك اليوم الذي فر فيه هاربا من عسس حكومة ابراهيم عبد الهادي باشا.. رآهم حين كانت أيدي العساكر مصرية والبنادق إنجليزية... مصري يسدد إلى قلب مصري في بحر الثورة الزاخر بطلاب المدارس وشباب العمال.. هتافات ترج الفضاء: جبل الطور اليوم ينادي.. القوا في عبد الهادي.

تحت زخات الرصاص تحول ميدان المحطة إلى بركة من الدماء.. فتش عن ثقب إبرة يلج فيه... من يحمي ولد في الثانية عشر من غدر الرصاص يا رب العالمين؟.

أبواب الدكاكين.... أبواب البيوت على جانبي الطريق، أما الأزقة بنحافتها وتعرجاتها كانت مفتوحة للفارين، وجد فيها بابا متسع الصدر.. هل دفعه بنفسه؟... أم انه كان مفتوحا طوال الوقت على مصراعيه؟... دلف منه.. وجد الرعية تشارك في صلاة رفع بخور عشية كان يقيمها راعي الكنيسة.

أثنـــاء دوران المبخـــرة فـــوق الـــرؤوس.. مشـــى وراء الراعـــي.. دخـــل الهيكـل.. ركـع أمـام غبطتـه.. قـال لـه: إعتـرف... قـال لسـت مسـيحيا.... عندئـذ، قـال الراعي: لتذكر أن الرب أنقذك من الهلاك.

ود أن يبكـي بـين يديـه... يخـر سـاجدا، لكـن الراعـي عاجلـه بوضـع يـده اليسـرى علـى رأسـه، فبدأ يهـتم برفـع عينيـه... نظـر إلـى الأعلـى.. مـن الـذي يحـرك اليج فوق رأسه وهى ترشمه بالصليب؟.

اسـتراح خـلال لحظـات انحنائـه تحـت أصـابع اليـد التـي كانـت مثـل ثمـار سـباطة المـوز، طويلـة.. ممتلئـة، ناعمـة، معبقـة بـالعرق وروائـح الأرغفـة الجافـة والشعير وأوراق خزينة الكتب.

حاولـت العينـان الخـروج مـن بـين أصـابع الراعـي، لعلهـا تسـتريح علـى أيقونة الشهيد مار مينا العجايبي.

فـي مسـاحة أغرقتهـا أنـوار ليسـت مـن الكهربـاء ولا مـن الجاز..كانـت مثـل ضـوء الشـهب.. ضـوء أبـيض.. ثقيـل.. عميـق.. دافـئ.. علـى شـعاعاته، لمـح يـد العجايبي خارجة من إطار الأيقونة، لتمنحه بركة من قربانه كانت في يده.

يبـدو أن المشـاعر التـي اجتاحتـه قـد مزقـت تقـاطيع وجهـه، فـلاح فـي شـكل لـم يسـترح لـه بعـض مـن مـروا بـه، بعثـت تصـرفاتهم إلـى قلبـه حالـة مـن الضـيق والغضب!

ما الذي دفع به إلى هنا من جديد؟

تماوجـت علـى صـفحة ذهنـه وجـوه عـرائس النيـل.. طفـت أمامـه عـدة رؤوس مقطوعـة كانـت تغـذي ميـاه النهـر بالـدم.. كانـت الأوصـال التـي لـم تلتـئم بعـد قـد عـادت بأجنحـة النـوارس.. حلقـت، هـذه فرصـة للخـروج مـن أبـواب الحديـد ومغـاليق النحاس.

نـد عنـه صـوت حـزين.. كيـف أحقـق مـا تريـد يـا إلهـي بفيضـان الحـب، وأنـا أكون في معظم الأوقات ممتلئا بفيضان الغضب؟.

انـدفع فـي عويـل طالبـا مـار مينـا العـاجيبي، ثـم طلـب الراعـي، لابـد أن يكـون بجواره إنسان... أنت يا إنسان..

لا يريـد العيـون التـي تراقـب حركتـه فـي الكـوات المرتفعـة، اضـطر لإعـادة النـداء أطلـت عليـه مـن الجـدران وجـوه منحوتـة لقديسـين وقديسـات، زعـق، علـى تصـادي صـوته، خـرج راعـي الكنيسـة مـن فجـوة فـي جـدار حجـري، وحيـث اقتـرب منـه، سـحبه بيـده مـن فـوق الدكـة ووضـعه فـي المقعـد المغطـى بقمـاش مـن غـزل أبـيض وغزل أخضر.

بعـد هنيهـة، جلـس الراعـي بجـوار قدميـه الحـافتين، وبعـد أن تـدفق صـوته بعبـارات الترحيـب، رأى شـفتي الراعـي وهمـا تنفرجـان -بـين شـارب كـث ولحيـة مسترسلة- بابتسامة طفولية.

خطوط فاصلة
على تقاطع ما حدث

طرأت المسألة على تفكيره بغتة.. بسطها تحت عينيه.. رأى أنها لم تكن اللحظة.. بل كانت وليدة العصاري والأماسي والعكوف في الخلوات حتى صلاة فجر اليوم الذي لم يصح فيه ديك عشة الكتاكيت.

أدار المسألة على مختلف الوجوه مرة بالعقل، ومرة بالقلب.. عبر لحظة مضت.. أدرك أن المسألة التهمت منه النهار كله، والليل بطوله.

رضخ لعدة عمليات حسابية صارمة.. النتيجة,, ليست مائة بالمئة.. اضطر لمراجعتها برأسه من جديد.. انبثقت عنها عدة خطوط متعرجة..

انبجعت.. انشطرت.. تحولت شكلا ومعنى.. أصبح لها طنين مثل زن النحل في رأسه.. هذه المسألة.

في صباح اليوم الذي تسربت إليه أشعة من ثقوب الشباك، حملته بوادر الدفء على استنهاض طاقته، تكورت الطاقة في قبضتة دفع بها الشباك، انفتح على مصراعيه، غرقت رأسه في نافذة من الضوء، قرر منذ الآن فصاعدا عدم إهدار الوقت بالمناقشة والنظر.

المناقشة تخرج.. تفرخ.. تشجر الأصوات داخلة بذور الإنشقاق، تتوالد تنسل مثل الأرانب، ولربما بتخريجاتها تضيف إلى القلب ما يوجعه.

لابد من الإقلاع إذن، ولو ليوم واحد - عن التفكير- لكيلا يأتي واحد ما، يخبط خبط عشواء، فتنقلب موازين من حوله.

قال في نفسه: إذا لبث سادرا في التفكير، لن يجني سوى الحُصرم، فخلال النظر، من الضروري أن يأخذ شهيقا.. يخرج زفيرا، يعتصر نياط القلب.. يدخن يتناول طعاما، شرابا.. تفضي به الأحوال إلى معادلات صعبة.. تصبح المحصلة في النهاية.. تلوث المكان بالفضلات، مع الإصابة بتخمة من المشاعر المفزعة بسبب عدم نهوض ديك عشة الكتاكيت من سباته.

ولعلك بعد فوات الأوان تكتشف أن الذي أصبته في حياتك لا يساوي قطرة واحدة من عرق جبينك المسفوح تحت قدميك، وقد تفاجأ بأنه لم يبق في العمر سوى القليل بين الكل يجري، الشطآن تجري،والذين يقتفون أثرك ويريدون أن يسبقوك كثيرون، لتقتلع أقدامك من أرض الحسك والصبار، عجل بالأمر، فمن دعاوي النجاح إلا ينتظر المسافر القطار، بل إذا شاء سبقه، وسبق دوران الشمس المتعثرة بخيوطها بين قدميه، هذا النوع من التفكير العقلي.

اندفع كالشلال، انفتحت جوارحه تحت انثياله في حبور، هكذا يصبح المشي ركضا في ظلال جناحي حمامة إلتقى بها صدفة تحلق فوق رأسه، حتى غدت في قلب السماء كبقعة ضوئية متحركة، ولما سئمت من الدوائر التي رسمتها، كسرت حدود النقطة البيضاء، رفعت كشراع مركب مدبب الطرف،

انتزعت من صدره الخفقات، في التو انطلقت عقيرته، ارتفع صوته على شقشقات العصافير.

العجيب في الأمر، أنه حين وجد نفسه في نشوة الطرب اغرورقت عيناه بالدموع، صمت لحظة كأنه يؤنب فيها نفسه.. لو أن الغناء لم ينقطع عنه منذ الطفولة لما وصل الآن إلى حد الإجهاش بالبكاء.

حلول أن ينسى، أو يتناسى لعله يستطيع الابتعاد عن هذه الحال، فادعى أن طلاوة صوته قد أثارت كوامنه، وهزت النبات، ورقصت أعراف الشجر، حتى ارتاحت عيناه، لما تسكبه روحه من جمال لا يباري على كل الأشياء التي مر بها... أيعود للقلب؟ بعيدا عن النهنهة والنشيج.. تجاوب سعف النخل مع رقصة هفهفات النسيم.. مرة أخرى، ناوشت الريح السعف، أخذت رؤوس النخل معها في عاصفة، دفعتها للخروج من العزلة، استعملت حق الدفاع عن نفسها بقوة وروح التآخي، مالت كل نخلة على جارتها، في صف تميز بوحدة الضعفاء أمام غوائل الريح وزفيف العواصف.

انعكست ظلال السعف على الجسد المكشوف للشمس والرياح.. انداح صوت الإجهاش تماما، أصبح تغريدة على طرف شراع فتى يجوب عرض السماء.

هناك.. التقى بالحمامة التي دغدغت كتفه بمنقارها بعد أن أدخلت إلى القلب السرور بالأرض التي يجري فيها.. إليها.

فوق أي مدق من المدقات يجري.

انتظمت خطواته بين قضيبي السكك الحديدية، هدير صدره يتصاعد مع إيقاع الخطوات.. صاحب وقع قدمه صوت من حجر من زلط.. من رمل.. تساك تك.. سش... شاش، خرفش صوت نخيل في صدره.

كل صعب يهون.. النجاح معلق بإطباق الشفتين أمام من سبق أن تكلم إليهم حول مشروع ود أن يقوم به، لكن بعد أن اخذوا منه الكلام بالتفاصيل وجدهم.. في سرية خبيثة، يسبقونه في التنفيذ.

لذلك، اقسم ألا يبوح بسر لمن يسرقونه، فقد باتت المسألة التي كاد أن يجهضها بطول التفكير، تسعى حثيثا للشمس، ويعود الفضل في ذلك إلى الخطوة الصحيحة.

أطبق على الشفتين، ابتعد عن ركوب القطار من المحطة التي يعرفها أصحابه تحسبا من أن يكون أحدهم يرصد تحركاته، ولكي يدعم الخطوة الصحيحة، آثر الركض في الطريق غير المألوفة لديهم.. لعله يصل قبل القطار حتى يستقله من المحطات الأخرى.

غير أن تاك تك.. سش.. شاش، انخفض إيقاعها على صوت ارتفاع لهائه.. تعثر الخطوات البطيئة تدفق أفكاره.. لم تعد الخطوة تأخذ راحتها على قدر

المسـافة التـي يريـد أن يتجاوزهـا، امتـدت الخطـوة بالكـاد لتعبـر الحيـز الصـغير الواقـع بين كل فلنكة وفلنكة.

زلط.. زلط.. زلط.

خلطة من الرمال المشبعة بلون القار.

أحجار مفتتة.

إلـى متـى تظـل الأشياء فـي ضـالتها وتلـك هـو وتلـك منهـا قامـة، ترغمـه علـى الانحناء والاهتمام بها؟.

داهمـه نـوع من الشـعور بـالخوف علـى كعبيـه مـن قطـع البازلـت المسـننة المفروشـة علـى طـول الاتسـاع الواقـع بـين فلنكـة وأخـرى.. لمـاذا لا يبتلـي بهـذا النـوع مـن التفكيـر العميـق؟ علـى الـرغم مـن اتخـاذه جانـب مـن الحـذر، إلا أن الـدم شـر مـن كعبيه، يـا ليـت الهمـوم انتهـت عنـد نـزف الـدم، إنمـا تجاوزتهـا بحيـث لـم يعـد ثمـة متسـع للغنـاء، ولشقشـقات العصـافير، ويعتقـد أن عليـه - مـع عـدم تخفـيض معـدلات السـرعة- أن يصل إلى نهاية الشريط الحديدي الممتد.. من أين؟

مـا يدركـه جيـدا أن القضـبان، صـنعت خطوطـا كثيـرة مـن حواليـه، أعشـت عينيه باللمعان الحاد، المستمد من عمق زرقة السماء، وحدة ضوء الشمس.

نقـرت دقـات قلبـه قفـص صـدره البـارز فـي التـو، ومـض عقلـه بذبـذبات دفعتـه لتجاوزهـا، فهيـأ نفسـه للوصـول بـإذن الله عنـد انـبلاج الفجـر، علـى آذان ديـك عشة الكتاكيت.

هـرش بإصـبعه صـدره الغـارق فـي العـرق.. انطلـق منـه ديـك وحمامـه.. تثـاءب الـديك وبانـت علـى وجهـه إمـارات التعـب وهـو يعطـي بنقنقاتـه أبلـغ الـدروس.. أهـاب بـه.. لكـي تنسـى ألمـك.. تـابع العـدو بمـنهج عـد الفلنكـات، إنـس أنـك أحمـق، وأنهـم خـدعوك، ضـع اهتمامـك فـي الأعـداد التـي يلهـج بهـا لسـانك، حقـق مسـتقبلك فـي أفعـال النسـيان بعمقهـا واتسـاع فراغاتهـا، انصـهر فـي مكابـدة الـركض بـذكر أعـداد الفلنكـات، ولسـوف تصـل قبـل القطـار، بـل وقبـل الـذين أخـذوا منـك الكـلام، فتألقـت رؤوسهم بالبريق تحت وهيج الأضواء 51، 52..

تململ العقـل علـى غيـر توقـع.. أيسـتطيع الجـزم بـأن مـا جـرى كـأن سـيقع لو أنه كان توقف عند اثنتين وخمسين وتسعمائة بعد الألف؟.

حسـبه إعمـال العقـل حتـى لا يـرتج عليـه عنـد ذكـر عـدد مـا.. حسـبه الاهتمـام بترتيب الأرقام الصحيحة وراء بعضها.

فكـر بتجديـد الـذهن، انطـرح ظلـه علـى الغيطـان احتـدمت بصـدره رغبـة الغنـاء عنـد سـاقية تـدور، تمنـى أن يعـود إلـى ظـلال جميـزة، وان يأكـل جبنـة بمـش مـع فول حراتي، ثم روى صدره بمياه قلة سمنودي حتى يتجشأ بالامتلاء.

72، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80، 81.

تصاعدت عبارات التشجيع من المارة، حظي بتصفيقهم:

هذا النفاثة البشري.

أمـا النـاقمون، وهـؤلاء الـذين بـاغتهم بـالإنطلاق، فقـد داس علـى تعليقـاتهم دون اكتراث:

يجري مثل النهر..
مكشوف الظهر.
عرق.. عرق.. عرق.
99، 100.

امتـدت فـوق النيـل، قضـبان الكـوبري.. لا يـزال النيـل مصـراً علـى التـدفق مـن تحـت البوابـات الحديديـة، وحينمـا كـادت قـدماه تنزلـق علـى رؤوس المسـامير التـي تشـد القضـبان إلـى الفلنكـات بزيـت لـزج وشـحم، شـعر أن الخبثـاء الـذين كـانوا وراءه أصبحوا أمامه.

انخلعـت فـردة الشبشـب مـن رجلـه، إنحنـى علـى سـور الكـوبري متحسـرا، لبـث ينظـر إلـى الفـردة المتهاويـة فـي تحسـر حتـى انكفـأت علـى وجههـا فـوق صـفحة النيـل، بينمـا مـرق القطـار بجـواره، ممتلئـا بطاقـة مـن الحديـد والكهربـاء والبشـر، والكراهية.

عاد أدراجه، جرت وراء كعبيه خطوط رفيعة من الدماء.

مجلة الثقافة الجديدة

أكتوبر 1999

اللعب برأس المغني الذي سكت

رغـم انـه وصـل إلـى نتيجـة لا يختلـف إثنـان حولهـا، أصـبح مثـل غرفـة بـلا جـدران,, تحـت ضـواغط الـنفس، نظـر بامتعـاض إلـى اهتماماتـه السـابقة حـول الأصول الممتدة والشرايين الموصولة ببطن الأرض.

مـا تحـت الأرض هـو الحقيقـي، البلـدة كلهـا.. ذكاءهـا.. ثراءهـا، وحـده مضـجعا علـى أحـد الأسـرة، ومحفـورا علـى جـدران الجبانـات.. لا أحـد يختلـف معـه حول السطح الذي فقد الصلة بالجذور.

لعـدة ثـوان، خضـع لشـتى الانفعـالات، صـار بـلا عمـد.. ثمـة وتـد بـلا خيمـة.. قدمان.. يدان.. لم يصنعوا في حياته سوى بعض الحماقات.

صمم على التخلص من الأوصال التي ضلت الطريق.. هل يبدأ باليسرى.. أم باليمنى؟.

بداية كل صباح، حوقلة مصحوبة بمد القدم اليمنى، يفردها أمامه، يسحبها بعد ثانية من وراء خطواتها، مع هبوط الليل، يصل إلى باب الأصدقاء، بمجرد ما يرفع عينيه في وجوههم، تنعكس على حدقتيه صورة من صور الإنهاك والرثاثة.

بدو لعينيه كأنهم عداءون، لم يفز أحد منهم في حياته بقصب السبق، عادوا آخر النهار بعرق غزير امتص جفاف الملابس يراودهم حلم كل ليلة.

متى يختص من أوجاع الجسد المنهكة؟.. يتمنى كل واحد منهم أن يضع رأسه على الأرض ويغط في سبات عميق.

قالت يمناه:

- رطب حياتهم.. أنعشهم بشئ من عندك..

قبع في أحد الأركان، سحب العود من الجراب القطني، نبش بالريشة صدره.. خفق الأوتار، حفز اليدين والقدمين لأن تقول له:

- غنّ للأصدقاء: احبك.

بدا أنهم لا يريدون الحب ولا سيرة الحب، رد الفعل في نفسه، دفعه إلى شعور بالوحدة، وأنه مأفوف، بل وانه لا قيمة له.

ساقته هذه الأحاسيس إلى الاعتقاد بأن قدمه كانت هي السبب إذ كانت تتوق دائما للسير إليهم.. لقد غررت به طوال اربعين عاما، أنها تستاهل القطع.

لم يكن الوقت ليسمح له بالتريث، ليس أمامه فرصة للمجادلة، البتر علاج ناجع لقدم لا تعرف حتى الآن كيف تدب على الأرض وإلى من تسير؟.

عجلت قعقعة أصوات القطار بحسم الموقف، فردها أمام العجلات الحديدية، قطع عليها الاتصال بعقله، في التو قذف بها في صندوق القمامة.

حجل لمسافة قصيرة بقدمه اليسرى، آلمته الساق من عند الفخذ.. ما عادت تستطيع وحدها أن تتحمل عبء الجسد الثقيل، حدفها هي الأخرى أمام العدلات، اعترته الدهشة حين لمحها تمشي امامه باعتداد، كأن لسان حالها يقول، الحمد لله الذي خلصني من أهوائك.. أنها تعرف كيف تمارس حريتها.. مستقلة.. تشق الطريق قدما لا تأخذ من مخه أي إشارة.. انها حرة.. لا سبيل للسيطرة عليها.. قدم بلا جزع.. لا قلب لها.. بلا عينين، ومع ذلك تسير.

لكن عندما تكلمت أحنقة صوتها، قدم كانت تمشي في الوحل والقاذورات.. ماذا كان ينتظر منها؟..

- لقد خذلتني في كل طريق سقتني إليها.

أكتشف أن لها لسانا سليما وصوتا أعلى من صوت رأسه.. خاف أن يفضحه أمرها، لابد من العمل على إيقافها:

- إلى أين أنت ذاهبة؟.

لـن تعـر قولــه اهتمامــا، خــاف أن تفضــحه وتلعـن حياتــه، إضــطرته للزحـف وراءهـا فـوق إليتـه ويديـه، دون أن يـدري أنهـا كانـت تسـعى لشـق طريـق ظلـت تحلـم بالمشي فيها بعيدا عن أوجاع القلب.

بعـد جهـد وعـرق، وصـل إلـي جورهـا تلقفهـا فـي حضـنه ضـغط عليهـا حتـى لا تنفلـت منــه وتجرســه... أغرقـت يديــه بالـدماء، لا يسـتطيع أن يـدفنها فـي صـدره، خاصــة وان الصــدر كــان عبــرة عــن مقبــرة مليئــة بــالموتى، ثــم أجــال الطــرف، فــتش عن انسب مكان، حدفها في المصرف الذي يعبر القطار فوقه.

وعنـدما أكلتــه يـده اليمنــى، هـرش بطـن كفهــا.. اسـتمراره فـي الهـرش، نقـل إليهـا وجهـا مـن حيـاة أمـه، كانـت إذا أكلتهـا يمناهـا تقـوم بتقبيـل بطـن الكـف وصـوتها يصعد مع الحلم:

- يا تري يا كفي ستسلمين على من؟.

أمـا يـده هـو، فقد فشـلت طـوال سـنوات الانتظـار.. لا أحـد يشـد عليهـا.. يـد لا يشـد عليهـا تصـير مثـل قلـب لا يعـرف الفـرح.. أنـه لـن يحـزن إذا تخلـص منهـا وضـعها تحــت العجــلات، اليســرى أولا، ثــم اليمنــى، لــم يبــق ســوى قفــص صــدره، مقبرتــه القديمــة، انتـزع منهـا رأسـه، مشـى بـدون جبانـه، بعيـدا عـن نفـوس الأعمـدة التـي ظلـت تحـتفظ حتـى الآن لشـعائر الـدفن وأناشـيد البعـث، كـل مـا تبقـى لـه رأس صـغير، فـرح بهــا دحرجهــا علـــى الطريـــق حتـــى اقتربـــت مـــن عربـــات الكـــارو المحملـــة بأكيـــاس القطن.. قالت للحوذي:

- سيأخذون القطن إلى إنجلترا.. أما أنت فلن يسمحوا لك.

لم يرد الحوذي.. فنطت أمام الحصان، سألته:

- ما رتبة هذه الأقطان".. أنت تحمل بلا شك قطنا قصير التيلة.

ضــربها الحصــان بقدمــه، نطــت بجــوار التلتــوار، ظلــت ترتفــع إلــى عــدة أمتار قبل أن تصدم بالأرض.

فــي تلــك اللحظــة، كانــت الشــمس قــد غطســت فــي المغيــب، ميعــاد خــروج الأولاد الذين يشتغلون في سن الطفولة بمحلج الأقطان، صاحوا فرحين:

- هذه الكرة المطاطية أفضل من كرة الشراب.

قسـموا نفسـهم إلــى فـريقين، وكانــت رأس المغنــي سـعيدة جـدا لأنهــا سـتلعب مـع الأولاد، وبـدأت تمـارس حبـا حقيقيـا، بلـغ حـد الـذروة إذ أحـرزوا بهـا عـدة أهـداف في المرميين، وحين صاحت في احتجاج:

هناك هدف صحيح لم يحتسب بعد!

أصـــيب الأولاد بالـــذعر، أخـــذوا أذيـــال جلاليـــبهم بـــين أســـنانهم وفـــرو صـائحين:

هذه ليست كرة.. انها رأس عفريت.

يوليو 1998

شعاع في خيمة البوح

يا وردة في جنتي.. يا جنة في وردتي.

كـان يستقبلها، كلمـا رآهـا بأهزوجـة مـن أهازيجـه، ثـم يقـول أنـه عـاد فـي التـو مـن عينيهـا إلـى عـرس يريـد أن يقيمـه الليلـة، فهـل يحـط الآن مثـل فراشـة علـى الصـدر أم على الثغر؟.

مضـى فـي كـل الأوقـات كمـا لا مثيـل لـه، تحـت إبطـه تشـتعل مخطوطـات القبيلـة، كنقطـة صـغيرة فـي مـدى مترامـي الأطـراف، وسـط خيمـة تـدفئها أنفـاس زوجـه، يـرى رأسـها وخيالهـا وهـى تعـد لـه القهـوة تحت أشـعة قـرص الشـمس التـي تتخلـل سـعف النخيـل، ويـرى نفسـه قـد اعـد لقبـول مشـاعر رب يسـيطر علـى جميـع أطراف الدنيا.

أدارت بقايـا القهـوة فـي الفنجـان.. امـتص صـوت ارتشـافها فـي شـبق، وأدارت الفنجـان بـين أصـابعها مـرة ثانيـة، كمـا كانـت تـدور وتلـف فـي أوقـات العصاري حول بداوته، وفطرته.

كـان رحومـه شـيخا فـي السـبعين، وكانـت زوجـة شـابة لا تمـر بهمـا ليلـة إلا وتحدثـه فيهـا عـن اهتمـام القبيلـة بـالتفكير فـي إجـراءات الـدفن والميـراث الـذي سـيئول من بعده لذويه.

حقا.

أنهـا ستصـنع كـل شـئ بشـكل لائـق، سـتموت بجـواره بعـد أن تكـون قـد وضـعت فـوق كثبـان الرمـال لوحـا مـن الرخـام تحفـر عليـه مناقبـه كأنـه لـم يتـأثر مـرة واحـدة بحـديثها المكـرور، مـا كـان منـه إلا أنـه نحـى فنجـان القهـوة الـذي نكـش رأسـه، وطلـب إليهـا ان تشـد الحـزام علـى وسـطها وقـال حصـان عجـوز يغنـي.. حصـان عجوز يرقص.

تقصـع بجسـده وهـز ردفيـه، وطلـب أن تـريح أعصـابه مـن اوجـاع الـدنيا وسخافاتها بالرقص.

قالت:

- يا رحومة.. أنت كبرت.

أبدت ارتياحها لغلق جميع نوافذ الخيمة، وكان هو يتابع الاستماع إلى إنفجار مشاعره واصطفاق مشاعرها على الإنغلاق، خيل إليه أنها تصفق على الإنغلاق.

وخيل إليها أنها استمعت إلى صوت آخر.. لماذا لا نحب؟ أمس كنت علقة، في الصباح صرت مضغطة، الآن أصبحت طفلا بحاجة إلى من يدخلني تحت هذا الكساء، وأشار إلى صدرها.

هجم على الثدي وظل يمتص من الحلمة لعق اللبن الذي سال على طرفي فمه بلسانه، وهو يرى الملائكة حين رفعته إلى سماوات ذات ألوان متعددة.

على باب الريان، استقبله البستاني، أهداه وردة فضية، همس في أذنه كلمة شكر، ثم قال:

- كنت أريد أن أرجئ الموت حتى لا تذهب الخيمة من بعدي بددا.

ابتسم البستاني وقال:

- هناك من سيتولى ذلك الأمر.

وجد نفسه يقوم صباحا وهو يحك جبهته بصدرها، وقبل أن يهبط المساء، تمرغ على تنهيدات القلب، وتساءل:

- هل الوقت كان مساء؟.

يذكر أن سماء البادية كانت في ذلك الوقت مثل مرآة فضية، انعكست صورتها عليها، إذ وقفت عارية في طست من النحاس، وهو واقف بجوارها بيده إبريق ماء، جعل يصب منه على رأسها، حتى اختلجت العضلات، أفسحت أمامه مجالا كان مفاجأة لقلبه، حيث صعد نشاط النحل في خلاياه، ثم وحوحت وارتعشت بطنها في موجات قصيرة من التنميل والخدر.

- أسرع يا عبد الله.

صاحت على أبنها البكر، لعل أباه يرتدع ويكف عن عبثه، وسمعا أقدما تدب أقدام تدب خارج الخيمة.

ولما استدار رحومه على قدميه، طلبت إليه أن يسحب الفوطة (البشكير) برفق من فوق المسمار المغروز في جذع نخلة عتيقة، وكانت هى متمة بلف جسدها بالفوطة وتقول وهو يضحك على تصرفاتها التي اعتبرها صبيانية:

لماذا اخترت أن ترتمي على صدري الآن؟!

أولاد الرجل الذي يغرق

طفا جسده على أجنحة الأمواج، سمعهم يقولون غريقا، زوجته وأولاد البيض والحمر والصفر والسود... كلهم أعلنوا عن غرقه.

لم يصدق أنه الغريق، حتى بعد أن لحست قدمه زبد الشاطئ، وبعد أن ابتعدوا ظلت أصواتهم تدوي في أذنيه بشتى اللهجات على الضفتين: غريق.

في قلب الهدير والصخب، اندفع مع الأمواج إلى بلدان رأى أهلها يفرون أمامه وهو على أعراف موجة، رفعته إلى الفضاء، على مقربة من بيوت السحاب، فتش فيها على أي مخلوق يعرفه.. اصطدمت عيناه بوجوه تبددت ملامحها وقد ذابت في أبخرة المطر.

وحينما اقترب من حلم الاشتهاء وغاية المحبين، قال: يا قمري، فنيت عمري أبحث عنها.

ابتعد عنه وهو ينحف ويشف ويتحول إلى شكل ثمرة موز فضية..

أرسل من هناك نهرا من الاحتجاج، لكن مسافات من عدم التقدير، دفعته خلسة أمام من ادعوا أنه تركهم في حضانة أمهم أربعين عاما، ثم جاء ينعي حياته.

كاد يبكي وهو يقول: كانوا لا شيئا، أنا صنعتهم.. أمهم هي السبب في عصف الرياح.. أربعون عاما في التيه، سأل عنها حادي طابور القوافل التي ترحل للآبار، سمع أنها عاشت كزوجة محترمة، تقضي معظم أوقاتها تلتهم ما يسقط من شجرة التفاح في وادي جان جن.. هناك، تزوجت من (ليلت) وكان ينسل منها كل ليلة مئة ألف من الشياطين.

وكان السؤال ارتجافا في بطن (بكة).. أتاه صوت لا تبحث عن كون وهمي، لا تسأل عن التكوينات الأولى، ستصادفك إبهامات ، مستغلقات، كل ما يمكن عمله الآن، أشعل شمعة في أعماق البحر، لتكتشف الحقيقة خدوشا في قلبك.

من هناك، مشى إلى نهير بقفر البوادي.. وحيدا بغير أنثى.. فجأة، إمحى العماء عن عينيه... رآها في الحانة، قالت سحبتني أشباح الليالي ونمت ببيت شارد بعد ان حفيت أقدامي في البحث عنك.

لم يرد أن يسألها عمن فعل فيها، اكتفى بإلقاء رداءه عليها، وسكبت عيناه الدموع فوق بقايا كأس من ثمالة عصير الغواية.. شربا منه، ثم انفتحت تحت أقدامه آلاف الشعاب، وكانت الريح تصاحبها وهما يمشيان على ضوء النيران المشتعلة أمام الخيام حتى وصلا إلى مصر، وهناك دخل عليها.

وفي صباح اليوم التالي، نزل إلى مياه النهر ليغسل جسده، انزلقت قدمه، لعبت الأمواج به، فقال لمن على الضفتين أنكم...

لـم يصـدق أحـد، ومضـى كـل واحـد مـنهم يـدفع جسـده بعصـا بعيـدا عـن الشاطئ.

ديسمبر 1999

2

أول الدخول

- مفاجأة خلف ستائر المساء.
- أصوات النفس تهب على الرياح.
- قنينة العطر الفارغة.

- حرائق عود الكبريت.
- سباق في دائرة المحيط

مفاجأة خلف ستائر المساء.

قالت:

أستاذي.. لا تأت الآن.

لم تخاطبه بـ "يا قلبي" ولا بـ "حياتي"، وإنما بدأت حديثها المقتضب على غير العادة بـ "يا أستاذي"

انقلاب في المشاعر.. حدث غير طبيعي، ولربما يكون طبيعيا، المؤكد انها كانت كمن يضع في أذنه جسما غريبا عنه.. يمكنه إعادة تشكيل نبرها، استمع إليها بمختلف الإقاعات.

أسـ.. تـ.. ا.. أ.. ذي.

شكّل كل حرف في نفسه عدة فواصل ستائر.. جدران، كيف تحدفه حبيبته إلى ما وراء حدود الفواصل والجدران؟.

أن تنسى، فلن ينس هو... انها المرأة التي زرعت في شتائه ورد الربيه، أذابت بحبها الصقيع الذي نشر أرديته منذ عدة سنوات على جلد جسده.

اليوم تقول.. لا تأت..

أعادته إيقاعات الكلمة إلى حياة الظلال وبثور الخريف على الصدغين، أما الحكايات القديمة التي جاءت على لسانها حول أنه الإنسان الوحيد الذي أخرجها بتأجج مشاعره من أكفان حياتها، فهي لامرأة لعوب..

الحقيقة ، انه يهرول في أفول بجسده مع ظلال المساء، وهى الغانية الهيفاء.. ربيع لا يدعو إليه إلا من يقدر على الالتفاف حول أغصانه.

رفعت سماعة التليفون بعد أن ضمخت أدرانها بالعطر وتجملت.. سمعها تقول في عاطفة مشبوبة:

- يمكنك أن تأتي بسرعة.

أجاب بعصبية:

- لدي عمل الآن.

أصوات النفس تهب على الرياح

منذ عدة ليال وهي ترتقب هذه اللحظة.. دائما يأتي في ميعاده.. سيدخل من هذا الباب قبل أن تسقط الشمس في المغيب.

للمرة المئة، وقفت أمام المرآة... تسريحة الشعر، أجنحة الحمام... العينان لوزيتان، قاست بنظراتها القوام، الردفين، البطن التي قال لها ذات ليلة، أنها تبدو مثل قرص من العجين المختمر.

ثم انتقلت الى الشرفة المفتوحة على سماء لا تحد، الجو ينبض بالحياة العصافير تعود بين الظلال في شيخوخة نهار يترامى في إعياء تحت أقدام شرفة الانتظار.

ماذا بعد عودة العصافير إلى أعشاشها فوق أغصان أشجار الحديقة؟

دعتها أجنحة العصافير إلى فتح كل النوافذ أمام عطر الأصيل.. حركت نسمة ربيعية النهدين بالنشوة.. أدارت النشوة رأسها، وقعت عيناها على كثبان من الردفين واستدارة العجيزة، ثم عصرت صدرها بيديها.. ضاقت ذرعا بسوتيان

الصدر، مزقته أمام الرياح، حيث قامت في ثمالة تراقص ستائر الشرفة، قبل أن يطل النهدين في جسارة وتمرد وهبات الرياح.

منذ متى والصدر يدق بعنف؟.

ارتفع وجيب القلب.. تناهى إلى أذنيها صوت طرقات حبيبها على الباب، بلهفة جرت، سبقت يدها خطواتها، سحبتها من فوق مقبض الباب.. تريثت قليلا حتى تستعيد رباطة جأشها، إذ لا يجب أن يراها محدوفة عليه بهذه العاطفة المراهقة.

كانت أصوات الدق تتواتر.. تتصاعد.. تملأ جنبات الشقة.. بتؤدة، أدارت المقبض، وجدت أمامها الرياح تعزف لحنها، وهى تجرجر بأذيالها الكناسة الملقاة فوق السلالم.

قنينة العطر الفارغة

فتحت الشرفة، انتظرته ارتعشات حرير قميص النوم... اليوم الأول لها، لابد أن تسقيه من كنوز النهدين ما يشبع نفسه النهمه ويغنيه عن الزوجة الثانية.

تناولت قنينة العطر، ضمخت المكان بعبقها، نظرت إلى شفتيه الدسمتين.. فكرت أن تخرجه من البرواز وتظل تلتهم.

عابث الهواء الحرير بين فخذيها.. نداء آخر يأتي من الطبيعة يلح على طلب الإستجابة.. بعد قلبل تنفتح له جوارحها.. ستمتصه بكل فحولته، وبتموجات

الحريـر الـذي يعابثـه الهـواء.. سـتفتح لـه البـاب، وتحكـم إغلاقـه، بحـث لا يكـون فـي حياته امرأة سواها.

أنـه قـادم بعـد عـدة دقـائق، يصـعد الـدرجات.. أنـه الـذي يصـعد، يتفصـد جبينـه بالعرق، تجفف له عرقه بشفتيها.. يلهث.

- اعملي لي فنجان شاي.

أسـرعت حتـى لا تنطفـئ بهجتهـا، بسـطت يـدها بالصـينية، قبـل أن تقـول: تفضـل الشـاي، وجدتـه يغـوص بجسـده فـي المقعـد، وقـد رمـى قدميـه بعيـدا عنـه، وراح يغط في سبات عميق.

حرائق عود الكبريت

التفـوا حولـه، طوقـوا سـاقية، غمـروه بسـيل جـارف مـن عواطـف الطفولـة، فــي الوقــت الــذي يتمنــى فيــه أن يرفســهم بقدمــه، حتــى لا يتعــرض ســرواله لوســخ أنوفهم وسيل لعابهم.

على حين كانت الأم تقول في حبور وهى ترتمي بين أحضانه:

- أبوكم جاء من السفر يا أولاد.

طقطـق شـعر رأسـه، سـرت القشـعريرة فـي بدنـه.. أي سـفر قـدم منـه وأي أب تعنيه؟.

فـوجئ بأنـه أصـبح أبـا فـي ظـرف دقيقـة واحـدة، وانـه كـان مسـافرا، حقيقـة أنه كان مسافرا.. لكن هل كل مسافر لا بد أن يصبح بالضرورة أبا لأربعة أولاد؟.

عبـروا عـن الاحتفـاء بـه، بالتهليـل والتشـبث بملابسـه، خـلال الضـجة انسـاق إلــى نــوع مــن التفكيــر.. بــلا غرابــة... يمكــن أن يكــون أنجــب بالفعــل، وخاصــة وان معظـم مـن هـم فـي سـنه، أنجبـوا العديـد مـن الأولاد، كـل مـا فـي الأمـر أنـه نسـى فـي معتـرك الحيـاة أشـياء عزيـزة لديـه.. لا غرابـة أذن إذا سـلمّ بـأن مـا لا يمكـن، لا يسـتبعد أن يكون!!

قال:

- أولادي.. أحبائي..

لا يعـرف كيـف تسـربوا فـي ومضـة خاطفـة تحـت ثيابـه؟... شـعر بالصـهد يلفح صدره وهم يرددون:

- بابا..

انبسط جدا من اللعبة الجديدة.. وزع عليهم قطع الشيكولاته كما فعل في المرة الأولى..وجدت الأم الفرصة سانحة لأن تقوم بتوزيع الأولاد على الشارع ومعهم الكرة، ثم أحكمت رتاج الباب، حين كان يدير لها ويتجه إلى ناحية النافذة.

من هناك.. تابع لعب الأولاد، وكانت هي تقول في نفسها: هل يحبها؟.. هلا يريدها؟... متى يأخذها في حضنه كما يأخذ الأولاد؟.

عندما احتك صدره بصدرها في الأتوبيس أول أمس، كان مثل أول عود كبريت أشعل النار في الحطب .. تعرف معنى ما تخلفه الحرائق... المشكلة فيمن يطفئ النيران؟.

الوجه منعكس على زجاج النافذة.. تراه غير مصدقة انها عثرت عليه، كأنها في حلم موشى بورود والزنابق.. يبدو سعيدا يميل بجسده يمينا وشمالا أثناء متابعة الكرة بين الأقدام.

تتمنى أن ينسحب بجسده من فوق الزجاج تريد أن تكون مرآته التي ينعكس وجهه عليها.. تريده في قارورة عطر ترش منها على جسدها في الليل.

في المرة الأولى ناولها أحد الأطفال، قال انه تشبث به في الطريق وادعى الولد انه أباه.. نام على صدره.. سمعته يقول وهى تأخذ الولد منه:

- هذه الزيارة للتعارف.

تذكر أنها ابتسمت وهى تبسط الأمور أمامه:

- ما رأيك، إذا كنت أنا متأكدة من أني أعرفك منذ سنوات؟.

ابتسم معلقا بكلمة.. يمكن.. كل شئ جائز، لم ترد أن تفجر أي خلاف معه حول ما هو جائز تفصح له عن وجه اعتراضها مطمئنة إلى ما هو واقع أقوى ممن هو جائز.

اكتفت بان حثته على أهمية الإمساك باللحظة، (فإن أي شئ ينفلت بين أيدينا يضيع، ولا أحد –بعد ذلك- يستطيع أن يجزم بأنه سيعود).

رأت ألا تضيع عليها الفرصة.. سارعت بسحب سوستة الجونلة إلى أسفل.. خلعتها.. انسابت فوق الردفين على الأرض.. بينما كانت بصمات أنفاسه، لا يزال ينشرها على الزجاج.

استعدت لإزاحة كزوم الملابس، همت بالارتماء بين أحضانه، لكن ارتطام الكرة والدويّ الذي أحدثه تهشيم الزجاج، أصابه بالذعر والارتجاف، ظل يصرخ في الأولاد أن يكفوا، بينما كانت تنحني على كوم ملابسها، تنسحب بسرعة قبل أن يراها عارية إلى خارج الغرفة، استمر وهو ينادي عليها، كانت تسمعه ولا ترد، وكان هو ينادي وهي تحاول أن تجذب سوستة الجونلة لأعلى.

سباق في دائرة المحيط

كنا نسعى حثيثا للوصول إلى البلدة القديمة قبل هبوط الليل.. إذا هبط الليل علينا، أنا وأبناء عمي الاثنين..- في الطريق - فقد لا نعثر على فتوح الذي استعملنا في الاستدلال على المرشدين، وعدد كبير من رجال الشرطة السريين، إذ ربما يغادر المكان إلى بلدة بعيدة لا يدلنا عليه فيها خفير ولا أمير.

في لحظة، ربطنا مصادرنا به، هو فك الأزمة، هو الطبيب الجراح، هو محقق الآمال.

أخي الكبير يعاني من مرض القلب، يتمنى أن تجري له عملية الشريان التاجي، وأحد من أولاد عمي يحلم بافتتاح كازينو على النيل، أما أنا فسأخرج من محيط التعساء.

على الطرق، تعرضنا أكثر من مرة للموت... اندفاع السيارة بنا بشكل صاروخي، أرعب سائقي المركبات التي جرت أمامنا، كل ما نحيط به، لا بد أن يصبح ورءانا، وإلا.. لا قدر الله..

تجاوزنا المدن الكبرى والصغرى دون أن نفكر في إلقاء السلام على أحد منها.. مررنا بالعديد من أكشاك السكك الحديدية.. المساجد الصغيرة.. مقام ولي الله في المنعطف الذي أعلن عنه ابن عمي بإشارة من إصبعه.. مضيفا، عندما نعود على مهلنا سيفي إليه بنذر نذر له في نفسه.

أحاسيس من الغيب تجتاحنا.. تفاؤل.. أمل، لابد من استعمال طاقة التفاؤل، سنعثر على فتوح ونأخذ منه وثيقة الميراث نصيب كل منا يربو على المليون.

تصاعدت فجأة من مقدمة السيارة رائحة احتراق، أوقف ابن عمي اندفاعها، على جانب الطريق التففنا حول الكابوت، بمجرد ما رفعه ابن عمي وصفع الهواء وجه الموتور، اشتعلت النار بشكل مباغت، استمرت ألسنتها تتصاعد في وجه الشمس التي اختفى نصف قرصها في المغيب.

3
وقفة على طريق البحث

- تذكرة للنجاح.
- طريقة البحث عن الملائكة.
- هو والأشياء الأخرى.
- إيقاع الشهوة والكبرياء.
- هل يمكن؟.
- خطوة من نوع آخر.

- لا أحد يعبر النهر.

تذكرة للنجاح

كـان متشـبثا بفكرتــه، حتــى بعـد أن وصـل إلــى هـذه السـن، تمنــى أن يحقـق حلـم الطفولـة بالوصـول إلـى مسـتوى أعمـال محمـود المليجـي الشـريرة وسـوء أخـلاق فريد شوقي على الشاشة.

لــو حقـق جـزءا مــن تصــرفاتهما، لجــاز أن يقـول عــن نفســه انــه نجــح، وسيقابل في كل مكان بالتصفيق والتقدير.

لـذلك، وضـع أمــام أترابــه العديـد مـن خطـط الهـروب، بدايـة مـن التحايـل علـى النـاظر والمدرسين وانتهـاء بـالفراش حتـى تـتم عمليـات التزويـغ مـن فـوق سـور المدرسة.

قبـل القفـز مـن فـوق السـور، لا يغفـل الجهـد الـذي بذلـه فـي غوايـة الأصـدقاء والوقوف بصلابة إلى جانب المترددين وتشجيعهم على قبول خططه.

فـي نهايـة العـام الدراسـي، نجـح معظـم الأصـدقاء، وفصـل هـو لرسـوبه عـدة مـرات، ومـع ذلـك كـان متفـائلا كلمـا مشـى فـي الشـوارع، وقـد بـدأ يهـتم بـإطلاق سوالفه، وأرسل شعره إلى الوراء.

لا يـزال يعتقـد أن الله سـوف يوفقـه، مهمـا طـال الوقـت علـى طريـق نجميـه المفضـلين، ولـن توقفـه أي عقبـة فـي حياتـه- حتـى بلـغ الأربعـين- عـن مزاحمـة الطلبـة الهاربين، أمام شباك تذاكر الترسو، لعله ينجح في الحصول على تذكرة.

طريقة البحث عن الملائكة

انطلقـوا غيـر عـابئين بشـئ فـي دفـء السـيارة.. أقـدامهم لا تلامـس الأرض، رؤوسهم ترف حول سحبات السجاير المعبأة بالبانجو.

تمـايلوا علـى إيقـاع صـوت أغنيـة كاسـيت السـيارة مـع كلمـات حبـة فـوق.. حبة تحت..

قـال عـابر سـبيل لنفسـه كـان يخـوض فـي وحـل أحوالـه: مـا رأيـك لـو نلتقـي فـي السـماء؟ لسـوف تتبعـك الملائكـة فـي ثيـاب بيضـاء.. لـن تفجـع مـن رؤيـة السـيجارة وهى تدوس عليك.. لن.

فرامـل السـيارة المباغـت كـان صـارخا أرعـب المـارة، بسـرعة نـزل منهـا واحـد مـن غيـر العـابرين، تبـدد الخـدر فـي رأسـه حـين سـمع الملتفـين حـول السـيارة يبوخون الرجل الجالس بجوار الاصطدام:

- الله يخرب بيتك.. يا أخي بطل سطل.

هو والأشياء الأخرى

اسـتلقى علـى ظهـره مسـتيقظا، لا يفارقـه الأسـى... بدايـة الأرق، زيـارة قصـيرة تزامنـت مـع هـزيم الرعـد وهطـول الأمطـار... حلـم يرفـل فـي سـعادة، سـرعان ما يزايله عندما تهم بالقيام مودعه.

لا يبـق ثمـة ثلاثـة هـو، والأشـياء التـي تـدخل كـل يـوم فـي حياتـه ولا تعـي كنة نفسه، وهى.

التـف الجميـع حولهـا، كـأنهم أمـام قـارب فضـي مـرتبط لمصـير روحـي بـين شـتى المرافـئ، ولا تـذكر أمـه شـيئا مـن أمـارات البشـر التـي طـرأت علـى أخوتـه، إنمـا كانـت ترتكـز فـي أحاديثهـا علـى شـعور دفـين لا يـنعكس علـى وجهـه إلا أثنـاء تحريـك مفاتيح قلبه.

قـال هـذه لحظـة فريـدة.. لـن يـدعها تتسـرب مـن بـين أصـابعه، فـي كيانهـا الفضي، سمعها تجيب على همهمات بأنه.. فارس.. في منتهى الرقة.

كيف عثر للوهلة الأولى على شظية من شظاياه المبددة؟...أين بقايا كيانه النفسي؟.

حملق في المرآة.. أين ذهبت عينه، وهو مستلق على ظهره مستيقظا؟... في المرايا المهشمة... عين فوق عين... رأس متعددة الرؤوس.. أين هو الآن؟!

إيقاع الشهوة والكبرياء

أخذ القضاة والكهنة أماكنهم في مقدمة الشرفة، مدارج الشعب كانت تصفر فيها الرياح، في جلد نمر، خرج وجه إنسان ينفخ في نفير، معلنا بداية الجولة الأولى.

تبارى الفرسان على متون جيادهم، مات من مات فمنهم.. في كبرياء، يعودون للآخرة بطعنات في الصدور.

ثم بعد ذلك، وعلى إيقاع الدفوف القديمة دخل الحواة إلى أرض الحلقة بقرودهم وحميرهم وكلابهم، أكلوا النار وأخرجوها في مقذوفات من أفواههم، عرفوا كيف يخرجون من الوحل والزهور ثم عرضوا صفا طويلا، تدرب على أعمال الخسة والنذالة.. كان على رأسه أحد الخنازير.

وكانت صفوف الذئاب كثيرة والحمير كثيرة، والقضاه والكهنة تغمرهم السعادة ولا يريدون أن يزايلوا أماكنهم إلا بعد انتهاء العرض.

هل يمكن؟

خرج على لمقابلة رزق الله ونيس بن خالة صاحبه فوزي تادرس.. تمنى أن تظل علاقته وطيدة بالقادم من مصر، بحذاء لامع وقميص مربعات.

كـان يأكـل كـل شـئ فيـه بنظراتـه.. ألـوان قميصـه المربعـات.. تسـريحة الرأس، انسيابه في سروال مكوي، همسة بالكلمات الرقيقة..

أقبـل رزق الله ليسـلم عليـه مودعـا بعـد أن قضـى عنـد خالتـه أسـبوعا مـن الإجـازة الصـيفية.. أصـر علـى مصـاحبته إلـى المحطـة فـي جلبـاب كـان يتحـرك داخلـه كقطعة من اللحم المتدحرج بدون رشاقة وتناسق.

هل سيتذكر هذا الوجه؟.

ابتسـم رزق الله، واسـتمر يبتسـم بـدون إجابـة، حتـى تحـرك القطـار، والجميـع يقفـون فـي صـف واحـد علـى رصـيف المحطـة.. فـوزي تـادرس، فكيهـة أخـت فـوزي، وأمهـا المقدسـة دميانـة التـي تجهـش، وتخنـق العبـرات بـين مآقيهـا، وهـى مسـتمرة فـي التنبيـه علـى رزق الله أن يظـل يقظـا حتـى يصـل بسـلام الـرب إلـى أختهـا العزيزة.

***

فـي أول يـوم مـن العـام الدراسـي، أخبـره فـوزي بـأن رزق الله أرسـل للمقدسة دميانة خطابا وفيه السلام والتحية له.

لـم تسـعه الـدنيا، ثـم بـدأ الشـك يسـتولي عليـه، أيمكـن أن يفكـر فيـه واحـد مـن يلبسـون الأحذيـة اللامعـة والقمصـان المربعـة؟.. أيمكـن أن يكـون فيـه واحـد فـي مصر، بل وعلى هذا البعد ويفكر فيه؟.

اغرورقـت عينـاه بالـدموع.. لاشـك أن فـوزي تـادرس يضـحك عليـه، لـم يكـف عـن البكـاء إلا بعـد أن حلـف فـوزي بالمسـيح الحـي.. أضـاف وهـو يتجـه إلـى البيت أنه سوف يأتيه بالخطاب ليقرأه بنفسه.

ولبث على ينتظر.

خطوة من نوع آخر

طرق مكرم الباب على أمه وأبيه، وجد معهما واحد راجل وواحدة ست في شياكة لا يراهما إلا على ميسوري الحال، مال على أمه مستفسرا، همست دول أقارب أبوك من مصر.

هؤلاء الذين كانت أمه عندما تتذكرهم، أو تضيق بهم الحياة، تقول لأبيه مشجعة: واجب عليك تروح تزور أولاد عمك، أنت من لحمهم ودمهم.

تربد سحنة الأب، تعيد عليه الأم الكلام في رجاء يجيبها بصوت كالعويل وهو يحاول ان يخفي ضعفه:

- حين يزور الفقير الغني، يعتقد الغني انه جاء يشحت منه.. أنا فقير صحيح ولكني غني عنهم والحمد لله بصحتي.

وحين طالت غيبتها، كان مكرم لا يزال يذكر تلك الأيادي التي طبطت على ظهره، وحفنة من الكلمات الرقيقة لا يزال عبقا يفوح تحت سمائه، وإذ يستبد به الحنين، لا يجد سوى أمه يسألها عن الأقارب الذين انقطعوا وانقطعت عنهم أخبارهم، اختلج صوتها بنبرة حزن، فشلت في خنق دموعها وهى تدعي أن الناس يدورون في ساقية، وما عاد احد يعرف رأسه من رجليه.

اليوم فكر أباه بأننا أصبحنا أول الشهر، فهم انه يلمح له عن أجرة الدرس الخصوصي، سمعه يتمتم:

- أجيب منين يا رب؟.

دس مكرم قدمه في الحذاء البلاستك، قال وهو يشعر أن الخطوة الصحيحة كان يجب أن يبادر بأخذها منذ مدة:

- أنا رايح مصر أدور على أقاربي.

لا أحد يعبر النهر

بسعر قطع الغيار المستعملة، كان يبيع كل أسبوع من دمه، ما يرضيه ويغضبه في الوقت نفسه، أنه كان يجد كل يوم من يبيع.

يشتري بالدم أوراق اليانصيب يسير بين مواء القطط ونباح الكلاب، يسبح رأسه في حلم البريمو الذي سيكسبه غدا ليرمم به ما تصدع في حياته.

الغد مسافة لا يقدر طولها، ما يعرفه جيدا، أنه ظل يمشي طوال الوقت يمشي... طوال الليل يمشي، حتى وصل إلى النهر.

وحين حدفته الرياح أمامها، كاد ينكفئ على وجهه، فقذف في وجهها بصقة من الدم، وهو يتهاوى بجسده على الشاطئ.

4

عودة إلى خطوة البدء

- الدرس الأول في القاع.
- لا يزال تقريبا.. يحاول.
- عناقيد الفل والياسمين.
- الأسماء وحدها لا تكفي.
- أنا.. ماما يا حبيبي.
- مطر على القلب.
- شريان جديد في فتحة الفم.
- حكايته مع فردة الحذاء.
- انفجار المواسير.

الدرس الأول في القاع

يظن من لا يعرفه أنه يتصعلك، يمشي بلا هدف، هو ذاته لم يكن يعرف لأي شئ يمشي، لم يكن يدرك أن فاترينة مطبعة الإقبال سوف يدمن الوقوف أمامها كل يوم، وان الذين يسيئون به الظن، هل سيظلون يجزمون بأن لا قيمة له؟.

كانت المطبعة بفتريناتها النظيفة غارقة في أضواء النيون المسلطة على عدد من مؤلفات طه حسين وسلامة موسى وكان يصطف تحتها على رف نحيف من الزجاج مجموعة من المفكرات السنوية.

قال: يمكنك معرفة اليوم والشهر من النتيجة الموجودة بداخل أي مفكرة، كما يمكن الاستفادة من صفحة اليوم البيضاء، وذلك بتدوين أي شئ من تلك الهموم التي بدأت تسكن قلبك.

استرسل في الحملقة.. هناك مفكرات أغلفتها من الجلد، كانت مفتوحة على صفحات بيضاء، ومفكرات مغلقة في رشاقة على جمال أغراه بأن يفتح قلبه على أوراقها.

غرق في لعاب أفكاره، رأى نفسه يملأ صفحات كل المفكرات بأشياء اعتقد أنها جميلة.. أمس ذهب لشراء واحدة منها، وجد المطبعة لسوء حظه مغلقة بسبب عطلة الأسبوع.

في اليوم التالي، ذهب مصمما.. أمام بائع الكتب نضح جسده بالعرق، إذ اكتشف أن المبلغ الذي يرقد في قاع جيبه، لا يكفي لشراء كراسة التلميذ.

لا يزال تقريبا... يحاول

ينهض صباحا.

عشرون عاما، كابوس يجثم على صدره صباحا، لا يصدق أنه قام من نومه، وانه بالفعل يجلس على طرف الفراش، يدفع قدميه في سروال من البلاستيك، يمد الخطوات في صندل من البلاستيك.

عشرون عاما.. لا يصدق أنه نهض ومشى على قدميه إلا بعد أن تشتم أنفه تلك الروائح الكريهة التي تنبعث من مسام الجلد المحترق.

قبل أن تدق أبواب بابه، لم يكن ليهتم بشئ من هذا القبيل، ركز جل اهتمامه في المحافظة على توازن خطواته وانسياب جسده في مرونة بين مروق السيارات والحافلات المكتظة بعمال النظافة.

ينتهي من الحركات اللولبية بين العربات، ليبدأ في الوقوف أمام ماكينة صناعة الأغلفة البلاستيك، حاول ان يدفع ذراعه إلى وراء، أخيرا.. انتصر على الخشونة.. استمتع بتمرير الذراع على ما فوق عجيزته.. راح يتحسس.

اكتشف في الظهر تقوسا معبأ بالأوجاع، كأن قربه من الآلام استقرت على كاهله، لم يكن لديه وقت ليسأل عن أسباب هذه التكور، فميكنة البلاستيك تأخذ منه كل الوقت.

بعد عصر اليوم، مشى في نفس الشارع، منذ ساعة يمشي.. تقريبا منذ أمس يمشي.. تقريبا منذ عشرين عاما وهو يقول تقريبا.. كل شئ في حياته يقاس

علـى وجـه التقريـب.. ولا يقطـع بشـئ.. لا يخـرج بشـئ، تقريبـا، الشـارع الـذي كـان يقطعــه بعــد عــد خطــوات، أصــبح يطــول ويمتــد تحــت أقدامــه.. لا ينتهــي بمبانيــه وأبراجــه المشــادة فــوق أعمــدة الألمنيــوم، وبنوافــذه المغطــاة برقــائق مــن البلاســتيك الشفاف.

انصــرف الظهــر والعصــر، أصــبحت المدينــة علــى أبــواب المغــارب، ولا تزال الحافلات تمرق بجواره مكتظة بعمال النظافة.

كـانوا وكـأنهم فـي الطريـق إلـى معركـة اسـتعدوا لهـا بوضـع الجواريـف علـى أكتـافهم، وعنـدما امعـن النظـر قـال هـذه الأبـراج صـنعت مـن عصـائر البلاسـتيك، ثـم حــاول مــرة أخــرى أن يلــوي ذراعــه للخلــف، لعلــه يســتطيع أن يوقــف –للحظــة قصيرة- الإحساس بالألم.

عناقيد الفل والياسمين

في أول عهدهما بهذا العمل، كانا يشعران بالانحطاط والخجل، قالا هذا عمل الأولاد الصايعين الذين لا يجيدون أي حرفة.. إنما ما باليد حيلة.

بحلول الشتاء، يبيعون على أرصفة السكارى حفنات الترمس المملح.. في الربيع، عند، تقاطع الشوارع الرئيسية، بالقرب من إشارة المرور، وبالذات عندما تعطي النور الأحمر ةتتكدس السيارات، تبدأ مهمة جابر وأخيه في الهجوم على سائقي العربات الأجرة والملاكي، وهم يلوحون بالأيادي المطوقة بعقود من الفل والياسمين:

- ياسمين المحبة.. يا ورد الربيع.

بحلول فصل الصيف، فوجئ جابر بشابين من حملة المؤهلات، عرضا عليه المساعدة، وازداد حجم من يعرضون المساعدة بالوقوف معه على التلتوار.

أصبح جابر وأخوه من كبار مصدري الأنفار على تقاطع الطرق الرئيسية، الإشارة التي كان يقف تحتها شاب واحد، أصبح هناك ثلاثة وأربعة، حتى اضطر إلى تقسيم العمل إلى ورديات.

وجاءوا له بكرسي، جلس فيه، وضع ساقا فوق ساق.. من فوق أحد التلتوارات، راقب حركة الجميع، فكر أن يستعين بالحكومة، لعل وزارة القوى العاملة تساعده في تنظيم هذا العمل.

وظل الجميع، يبيعون في الشتاء للسكارى حفنات من الترمس المملح، وفي الربيع يطوقون أيديهم بعناقيد الفل والياسمين.

الأسماء وحدها لا تكفي

تمنى أن يدخل على أمه وأبيه بكلمة تنعش قلبهما.. كلمة جديدة لو خرجت من بين شفتيه، قد تغير من أوضاعهم في الشارع.

الكلمة سمعها من الأولاد والبنات أثناء وقوفهم بالترسينة في شورتات قصيرة، وفساتين زاهية الألوان.

إذا نجح في قولها، سيستطيع أن يخلع الجلباب، ولا يبقي قدامه سوى خطوة قصيرة ويرتدي السروال.. من يدري؟.. لعله وهو في هذا الزي يبسط أباه ويعجبه.

لكن. هل يستطيع أن يأخذ هذه الخطوة إذ يرى أباه وهو يشعر دائما بالإختناق وراء جدار من أدخنة السجاير؟.. جدار من الأدخنة الكثيفة والشفيفة.. حين ولد وجد نفسه يدور وراءه... وحيدا..

هل يستطيع أن يخرج على أمه وأبيه، وبدلا من أن يقول لأمه يا آمه.. ولأبيه يا آبا، ينادي في رقة. ما.. ما.. با... با...؟

بـالغريزة، اكتشـف أن هـذه الأسـماء بحاجـة إلـى أصـوات نحيفـة.. رقيقـة.. من أين يأتي.. يا اولاد.. بالرقة والنعومة؟

حـاول أكثـر مـن مـرة.. فـي ظـل أوضـاع عصـيبة.. أغلـق بـاب الغرفـة عليـه.. قـام بتـدريب نفسـه، كـأن فيـه قالـب طـوب محشـور فـي حلقـه.. حـاول أن يطلـق الصوت.. ردد..

مـن كـان يـود ان يلحـق بعجلـتهم، ويـدعي أمـام أمـه أنـه تصـاحب علـيهم، يقولـون فـي سـهولة: تيـزة.. دادي.. نينـا.. اونكـل.. هـل كانـت للأسـماء فـي أفـواههم طعـم سندوتشـات الاشـتهاء، ولـذة لـي اللسـان بـالنطق أثنـاء تقطيـع حروفهـا بـين أسنانهم؟.

ولأنـه لاحـظ أن أبـاء أصـدقائه، كـانوا يعتبـرون شـارعهم مثـل محطـة الانتظـار ينتقلـون منـه بعـد وقـت قصـير إلـى حـي آخـر شـوارعه مسـفلته.. لـذلك، صـمم أن يتعلم منهم شيئا قبل الرحيل.

أثنـاء جلوسـه علـى الحصـير والطبليـة أمامـه، اجتاحـه سـؤال لـم يجـد لـه إجابة حتى الآن... لماذا يفكر معظم الذين يقولون: ماما.. بابا.. في الرحيل؟.

سألته أمه إن كان فرغ من طعامه أم لا؟.. وسمعه أبوه وهو يجيب:

- نعم يا ماما.

كـح أبـوه وشـيع بصـقه باسـتياء.. أطلقـا مثـل قذيفـة مـن الشـباك وهـو يقـول بصوت خشن:

- تعالي يا سيدة شوفي ابنك وخبيتنا فيه..
ابن العرص عايز يعمل خواجه.

أنا.. ماما يا حبيبي

بدا عليه التبرم والقلق.. زهق من طول الترقب والانتظار.

عـادة، يقتـرب المـوت حـين يبتعـد الحـب، مـن هـم فـي مثـل سـنه مـا يحـب أن تكـون لهـم أجنحـة.. العقـلاء هـم المنطقيـون.. الواقعيـون.. ترفـع التجـارب فـي وجهـه صوتها.. لا يفرح بما يأتيه.. لا يحزن..

كل شئ من كيانه الذاتي.. من حياته واكتماله، لابد أن يعود إلى أصل وجوده.. ذرات.. ربما تصحو الذرة.. ربما تصبح طفلا من جديد.

من الأفضل أن يبتعد الآن عن نفسه.. قام.. تشاغل بغسل كوب الشاي، فوجئ بالوجه المنعكس على مرآة حوض الغسيل:

- من أنت؟

قال الآخر:

- من أنت؟

ما في مرة تركه يمر من أمام المرآة إلا وسأله:

- من أنت؟

قام من باب التشاغل والإبتعاد عن نفسه بتهشيم تلك المرآة، وضعها في كيس الزبالة، لن يرى بعد ذلك شيئا من نفسه القديمة..

لا يريد أن يرى.. يريد أن يسمع.. ماذا جرى؟.. لو سلم بأنهم انشغلوا بالزوجات والأولاد، فان لدي كل منهم تليفونا، يمكنهم أن يرفعوا السماعة، سيرد أنه بخير ثم يدعو الله أن يحفظهم.

قال أن المرآة هشمها، لا داع لمحاولة النظر في قطعها الصغيرة.. ثم جلس في مقعد كنواة صغيرة في وحدة ففتتها الوقت وسوء الأحوال.

ضاق بالمسلسل التليفزيوني، أغلقه، قال أن الاستماع للموسيقى يرد الروح، محطات الراديو لا تكف عن بث أخبار المعارك، إسرائيل تسعى لإقامة حكومة يكون مقرها القدس، الاف القتلى والجرحى في البوسنة والهرسك والشيشان، حملات إبادة عرقية.

نفخ في غيظ، اغلق الراديو، انتفض جسده عندما ارتفع رنين التليفون..

- آلو.. آلو..

لا أحد يجيب.

- آلو.. نعم من الذي يريد أن يتكلم معي؟.. آلو.. أنا وحدي في الشقة.. من فضلك، أرفع صوتك.. ألو، لا أسمعك.

سمع ارتطام السماعة على الجانب الآخر، كأنها وقعت على لوح زجاجي فهشمه.

استدار.

مسحت عيناه المكان.

قال، كل الأشياء التي في الشقة خائنة، اللوحات التي فوق الجدار خائنة، ملاعق الطعام خائنة التليفزيون خائن وجبان، الراديو خائن وجبان، الفراش الذي ينام عليه لا يصلح إلا أن يكون قبر ميت.

مرة أخرى، ارتفع الرنين .. ماذا يقول؟.. لابد أن أحد من الأولاد يلح في طلبه..

- آلو.. آلو..

لا صوت يجيب.. الصق السماعة بأذنه لعله يستخرج من ثقوبها الدقيقة صوتا يفسر له من هو؟.. ومن هم؟...

- آلو..

بدأ يستمع إلى صوت، شئ قريب من القلب عندما يدق، شهيق ضعيف، زفير ضعيف، أصوات نحيفة كأنها صادرة من قلب عصفور.

قال مشجعا:

- آلو.. أنا معك طمئنني..

لا شئ هناك سوى شئ من الخرفشة.

وضع السماعة وقال ليذهب بعيدا عن القلق، تأهب للصلاة، استعاذ بالله، كبر، في الركعة الثالثة، ارتفع رنين التليفون، صمم ألا يعيره أدنى اهتمام.

لكن الرنين كان يلح عليه، لدرجة أنه تدخل في صلاته، بعد أن أصبحت السماء في يده، وشظايا الرؤوس المدفونة في كيس الزبالة تبتعد عنه، أن خرج من تابوت حياته، سمع رنينا لا يكف عن الرعب.

- آلو.. أنا معك.

اعتقد أنه يسمع صوت إنسان، منذ مدة طويلة لم يسمع صوت إنسان، فرح جدا لأنه -أخيرا- استمع إلى صوت إنسان.. لو كان بإمكانه أن يحتويه بين يديه، يبدو انه لولد في بداية النطق، كان بحاجة إلى قدر من التشجيع والحنان حتى ينطق..

- نعم يا حبيبي، دعني أسمع صوتك الجميل.

بصعوبة، فهم منه أنه في الشقة لوحده، وطلب أن يعود إليه بسرعه.

وفي اللحظة التي حاول أن يستعيد فيها توازنه وهو يفكر فيما يجب أن يقول للطفل فوجئ به يسأله:

- أنت ماما؟

- لم يدع للحيرة والتفكير أن يبددا مشاعره، فقال وهو يبكي بتلقائية:

- نعم .. أنا ماما يا حبيبي.

مطر على القلب

التفت يداها حول رقبته، أضرمت النار في الصدر، لم يبال باحتراق الجسد، كأن لا يعنيه.

منهمكة بدعك الصدر، وأصابعها تجري على أزرا بنطالونه.

ظن أنها كانت تحدثه، أجاب بفتح عينيه في هذا الصباح.. أنه فتح عينيه.. اغتسل بلحظة هطول الأمطار قررت مصير القلب.

ثم عاد إلى مجلس الأصدقاء مشرق الوجه.

سألوه:

- متى تزوجتها؟

أجاب:

- والله لا اعرف حتى الآن متى طلقتها؟.

شريان جديد في فتحة الفم

لكي يصل إلى الغرفة التي خصصها له أبنه ليقضي فيها ما تبقى له من عمر، كان لابد أن يمر بشجرة النخل التي زرعها أبوه في صدر شبابه.

لا يستطيع، بعد أن وهنت قواه الصعود فوق جذعها.. يعتصر قلبه الألم كلما لمح السعف المصاب بالاصفرار.

وضع السعف الجاف حدا بين الجذع والأطراف البعيدة، كأن تلك الأطراف لبثت تعمل على الهرب من هول الموت وسكرات أيام الاصفرار.

ثمة شريان في السعفة البعيدة يتشبث بلون الاخضرار الذي لا يستخفي عن وجه من يعمل في السر والعلن على عزلتها حتى تصاب النخلة بالعقم، وتكتسي بأكفان صنعها لون الغبار ويد الإهمال.

وقف في قلب الغرفة التي حولها في المساء إلى ساحة صغيرة يلعب فيها مع الأحفاد لعبة الحمار وصاحب البردعة..

لم تعجبهم حكاية الحمار، راح يقص عليهم حكاية الأسد الذي هاجمت الفئران أنيابه، وأثناء استرساله في ألحكي ظهر فوق رؤوسهم سلطان النوم.. ظل يرفرف بجناحيه حتى اختفى جسد الجد عن عيونهم، ولم يعد يظهر منه سوى فم تخرج من أصوات الطيور.

حكايته مع فردة الحذاء

بصعوبة خلع فردة الحذاء اليمنى.

العملية التي أجريت في ظهره، لا تساعد على الانحناء ليخلع الفردة اليسرى، أرسل إلى زوجه نظرة، لعلها تفهم وفردة الحذاء بيده.

تفضل الالتزام بالصمت وهى تستمع إليه جاحظة العينين، أنه عجول.. متوتر، وهلا لا تغفل عما يريده منها، إنما.. بعد أن ينتهي من حكايته، ستؤدي ما يفرضه الواجب عليها كزوجة.. فقط، عليها أن تصمت عندما يتكلم.

وكان هو يرى في سكونها وصمتها عدم تقدير لظروفه، تفضل أن تصبح طيفا في ركن الغرفة، وتراه متألقا في نور الصالة وهى تستمع إلى واحدة من حكاياته.

رآها كمن تجلس في مرفأ على شرفات السحاب، يسأل كيف اجتذبته هذه المرآة من يده خُلسة.. بين مد وجذر، تركته في لجة يحكي حكاية الرجل الذي شاهده وهو يغرق في النيل، والناس على الشاطئ يمضون بلا اكتراث.

استغرقها الإصغاء.

في منتصف الحكاية، قال في نفسه، يمكنه أن يصمت فجأة لعله يلفت بصمته انتباهها فتساعده في خلع حذائه اليسرى.

صاحت بغضب:

- هذه حكاية شيقة.. رجل يغرق.. لماذا تصمت؟

عاد إلى الحكي وعادت تتابع الاستماع باهتمام..:

- بعد أن غرق الرجل..

اقتربـت منــه مصــغية، وهـو يـتكلم ويلـوح بفـردة الحـذاء حتــى كــاد بوزهــا يصيب عينيها، وهى مستمتعة به وبحديثه.

انفجار المواسير

فوجئ بصوتها يتلوى كثعبان بينه وبين صديقه:

- حتى مع أقرب أصدقائك، تتكلم بعنف وغضب.

جعلته المباغتة مبلبل الفكر.. دفعه قولها إلى الحيرة والشك في نفسه.. هل صرخ يوما؟.. لماذا تؤكد أنه يعنف ويغضب؟.

ما يعيه بحق، أنه لم يرفع الصوت أبدا في حياته، فلماذا تطعنه بالافتراء؟.

رمقها بعتاد مشوب بخيبة الأمل وتهته في الكلام:

- تعلمين أكثر الناس من أي إنسان آخر أني إذا تكلمت إلى إنسان، أظل وأنا أكلمه في وضع منحن.

عندما جذبت مصراعي الشباك لتختفي وراء الشيش الخشبي، هدأت ثائرته، مع أنه كان متأكدا من وقوفها هناك تتلصص عليه بالتصنت والنظر، ولكنه صرف النظر عن التفكير فيها:

التفت إلى صديق قائلا:

- على ما أذكر أننا وقفنا عند مشكلة الأسعار..

قاطعة صديقه قائلا:

- اعتقد أنك بدأت الحديث عن طفح المجاري،
ثم لا أدري متى قفزت بالكلام حتى
ربطت بين الشعر وأصوات المطارق.

كان لا يزال يحاول الدوران كالدبور والالتفاف حول صديقه.. أراد -فقط- أن يجلي له أسباب تعقد المشكلة، لكنها دفعت ضلفتي الشباك بعصبية وهى تنهره:

- حرام عليك.. أتريد أن تلخبط عقل الرجل بالصراخ في أذنه؟.

- إنه صديق، متعب بائس.

- هل يستدعي ذلك منك أن تزعجه بوجهك
الطافح بالشر وامارات الانتقام؟

كانت تقول له ذلك وهى تكاد أن تنفجر من الغيظ، ثم شاب صوتها الهدوء حين استدركت:

- ولكن لا يمكنك الوصول إلى نقطة البدء الصحيحة
وأنت تصرخ.

لأول مـرة يمعـن فـي كلامهـا النظـر.. بانـدهاش "بـالحق، لا يمكـن الوصول إلى نقطة صحيحة بالصراخ".

للكلمـة فـي شـكلها الزخرفـي قـوة حتـى ليكـاد أن يقطـع بسـداده، غيـر أنها برغم رصانتها لم تكن صادقة، لأسباب كثيرة منها.

لأنهـا لـم تكـن معبـرة بصـدق عـن الشـكل الـذي كـان عليـه آنـذاك، وثمـة أمـر آخـر أن كـلا منهمـا كـان يـرى مـا لا يحـب فـي صـاحبه.. هـي تـرى.. هـو يـرى.. إنهـا لـو أحبتـه لكانـت قـد رأت مسـرحا يجـري علـى وجهـه بالبشـر والتفـاؤل، ولكنهـا كانـت مصـرة علـى رؤيـة الشـر الكـامن فـي أعماقهـا والمسيطر علـى حياتهـا وهـو يـنعكس علـى صـفحة وجهـه، ومـا فتئـت تـراه يرفـع الصـوت بكـلام يقـرض ، ويـنهش ويعنّـف بالمشـاجرة ثـم بعـد ذلـك راحـت تؤكـد لصـديقه انـه مـريض، وانـه يصـرخ فـي النـوم واليقظـة، والأدهـى مـن ذلـك أنـه يصرخ ولا يصدق أنه يصرخ في كل وقت.

أخيرا.

سـلم الـزوج بوجهـه نظـر زوجتـه لعلهـا ترضـي وقنـع بالسـكوت حتـى يتسنى له أن يستكمل الحديث مع صديقه، فقال:

- مـا ترينـه علـى وجهـه ينطـق بـالمرض.. ألا يسـتحق مريضـك بعض الراحة؟.. أنا يا زوجتي مريض..

انــذعرت أمــام اعترافــه، إذ لــو أثبــت صــحة مرضــه بالتحاليــل والتقـارير الطبيـة لكـان نصـيبها السـهر علـى عيادتـه وتحمـل مـا لا تحمـد عقبـاه، فتراجعت مسرعة وهى تغلق الشباك دونها قائلة:

- الشر بعيد عنك.. أنت بخير.

على التو، أقبل على صديقه منشرح القلب بالسؤال:

- عند أي نقطة توقفنا؟
- عند انفجار المواسير.

جريدة الجمهورية

1989/10/9

محتويات الكتاب

الكراسة الأولى:

[الدخول في نقطة البحث]

- عروسة بلاد الشمس.

- محاولة الجلوس في ثقب إبرة.
- خطوط فاصلة على تقاطع ما حدث.
- اللعب برأس المغني الذي سكت.
- شعاع في خيمة البوح.
- أولاد الرجل الذي يغرق.

الكراسة الثانية:

[أول الدخول]

- مفاجأة خلف ستائر المساء.
- أصوات النفس تهب على الرياح.
- قنينة العطر الفارغة.
- حرائق عود الكبريت.
- سباق في دائرة المحيط

الكراسة الثالثة:

[وقفة على طريف البحث]

- تذكرة للنجاح.
- طريقة البحث عن الملائكة.
- هو والأشياء الأخرى.
- إيقاع الشهوة والكبرياء.
- هل يمكن؟.
- خطوة من نوع آخر.
- لا أحد يعبر النهر.

الكراسة الرابعة:

[عودة على خطوة البدء]

- الدرس الأول في القاع.
- لا يزال تقريبا.. يحاول.
- عناقيد الفل والياسمين.
- الأسماء وحدها لا تكفي.
- أنا.. ماما يا حبيبي.
- مطر على القلب.
- شريان جديد في فتحة الفم.
- حكايته مع فردة الحذاء.
- انفجار المواسير.



السيرة الذاتية للروائى / عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

- عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
- ولد بالمنصورة عام 1938
- صدر له عدة أعمال أدبية
- كان عضوا بمؤتمر الأدباء الشبان الذي عقد في الزقازيق عام 1969.
- عمل في ليبيا بمجلة "الثقافة العربية" و "الشورى" و "الأسبوع الثقافي" في عامي 1976, 1977.

أولا:- في مجال القصة القصيرة عدة مجموعات منها:-

1. أحلام ترانزستور. (سلسلة: أدب الجماهير).
2. كش ملك. (سلسلة: أدب الجماهير).
3. عقد من طرف واحد. (الهيئة المصرية العامة للكتاب).
4. اللعب في الحلقة. (الهيئة المصرية العامة للكتاب).
5. بيت النسيان . (سلسلة: إبداع الحرية).
6. همس القلوب (سلسلة: إبداع الحرية).
7. زفة مصرية. (الهيئة العامة لقصور الثقافة).
8. أفراح الملائكة. (سلسلة: إبداع الحرية).
9. سقوط مدينة معهلش. (سلسلة: إبداع الحرية).

ثانيا في مجا ل الرواية منها :-

1. أولاد المنصورة (الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة نادي القصة) .
2. رحمة والخروج من الخيمة. رواية (الهيئة المصرية العامة للكتاب).

3. فيران شارع سعادة. (الفائزة بجائزة التفرغ الهيئة المصرية العامة للكتاب).
4. شفاه من الملح.. . (الهيئة المصرية العامة للكتاب).
5. أجنحة الربيع.. . (الهيئة المصرية العامة للكتاب).
6. العنف السري.. . (المجلس الأعلى للثقافة).

ثالثا:- في مجال المسرحية عدة مسرحيات منها :-

1. بطاقة عائلية .
2. الصنف دا منين ؟
3. احنا بتوع الفول.

رابعا:- في مجال الكتب السياسية والفكرية التي صدرت للكاتب ومنها:-

1. إسرائيل من الشتات إلى الاستعمار. (مكتبة الإيمان).
2. صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية. (مكتبة الإيمان).
3. بابا الفاتيكان و حديث الساعة . (مكتبة جزيرة الورد).
4. الإسلام بين الشيعة و القاديانية. (مكتبة الإيمان).
5. هواجس ومخاوف لدى المسلمين والنصارى منذ الحروب الصليبية إلى ثورة يناير 2011 (مكتبة جزيرة الورد).
6. يوسف على خزائن مصر. (مكتبة جزيرة الورد).

الجوائز:-

- فازت رواية "أولاد المنصورة" بالجائزة الأولى في المسابقة التي ينظمها نادي القصة.
- فازت مجموعته القصصية "أحلام ترانزستور" بالجائزة الأولى في المسابقة التي نظمها نادي الأدباء الشبان الأول بالزقازيق.
- فازت قصة "النبي يموت في جحره" بالجائزة الأولى في المسابقة التي نظمتها جريدة "العمال" عام 1970.
- يرأس تحرير سلسلة إبداع الحرية.
- كرمه مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم الذي عقد بجامعة المنيا عام 1995لدوره البارز في خدمة الأدب و الأدباء الشبان.

- أعيد تكريمه في المؤتمر الذي عقد في مسرح أم كلثوم بالمنصورة عام 2002.
- كرم بمؤتمر إقليم شرق الدلتا (الهيئة العامة لقصور الثقافة) عام 2013 بقصر ثقافة المنصورة لدوره البارز في خدمة الأدب والأدباء الشبان.
- كرمه اتحاد كتاب مصر (فرع الدقهلية –دمياط) 2016.
- كرمته الهيئة العامة لقصور الثقافة (إقليم شرق الدلتا الثقافي فرع ثقافة الدقهلية) عام 2016، تقديرا وعرفانا لجهوده في رفع المستوى الثقافي بالإقليم.

خامسا:ـ تحت الطبع ومنها:ـ

- صباح ديك حزين....... (رواية)
- موت مبكر جدا.......... (رواية)
- عفريت الملك سليمان.. (رواية)
- في الليل.. (قصص)
- قالت نملة.. (قصص)
- فجر الرواية المصرية. (دراسة)

اقرأ في أعدادنا القادمة...

- أنا طاير بالجناحات.
  شعر.. محمد كشيك.

- من أعمال الدكتور/

عبد المنعم الباز

صدر عن سلسلة إبداع الحرية..

- بيت النسيان (قصص)
عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل.
- العزف على أوتار الحب.(شعر)
محمد حسني.
- ثمة شئ في يدي. (شعر)
فيصل عبده.

المسئول عن النشر
عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

الطبعة الأولى
عام 2000م

رقم الإيداع بدار الكتب

2000/4589
الترقيم الدولي . **I.S.B.N.**
977 -324 -037 -1

دار الإسلام للطباعة والنشر
ت: 350453 / 050